أبو اسحاق الصابي
سيرة وفن

مكتبة قسم اللغة العربية
كلية الآداب

عبدالقادر حسن امين
استاذ مساعد
قسم اللغة العربية

خلاصة البحث :

يتناول البحث لمحات من حياة ابي اسحاق ، ويتطرق الى رغبته في ان يقتفي آثار اسرته في تعلم الطب والهندسة ، ولكن احساسه الادبي تغلب عليه ، واتيحت له فرصة العمل في الديوان ، فاستطاع ببراعته ان يظفر بأعلى الرتب ، ثم عرج البحث على رسائله وحللها وعقد مقارنة بين فنّه وفن الكتاب الآخرين في عصره ، اولئك الذين كانت تربطه بهم اوثق الصلات .

وتعتبر رسائله وثائق تاريخية على جانب كبير من الاهمية ، اذ من الممكن استخلاص الكثير عن احوال آل بويه ، اولئك الذين لعبوا دورا خطيرا في المنطقة ، وعن احوال الخلفاء الذين لم يبق لهم من الخلافة الا مظاهرها .

وقد كافح الصابي طويلا في مجتمع الغربة ليثبت وجوده ، ويحتفظ بعقيدته سليمة دون مس او تبديل ، برغم المغريات الكثيرة التي تقدم بها اليه الامراء والخلفاء راجين ذلك فأبى باصرار ولم يسلم الصابي من تقلب اهواء الامراء واضطرابات المجتمع فلقى من العنت الشيء الكثير وسجن طويلا ، وتعرض للموت . ان اعجاب المجتمع الاسلامي آنذاك ، بكاتبنا لا حدود له ، وقد رفعته رسائله الى أعلى المقامات في فن الكتابة ، وكانت صلته بالشريف الرضي صلة نموذجية ، ورثاء الشريف له دليل على فضله وادبه .

كانت بغداد في العصر العباسي تضم شتات المذاهب الدينية المتصارعة ، ويعتنق اهلها فلسفات متناحرة متناقضة ، وينقسمون الى قوميات متصلبة في

مواقفها ، غير متهادنة مع مثيلاتها ، وكانت ظلال الاسلام السابغة الجامعة تبدو في كثير من الاحيان هينة التأثير في نفوس قاطني المدينة الكبرى فقد شهدت مذابح التعصب الاعمى ، لدسيسة لئيمة ، او شعار يرفعه بعض العامة غراما بالفتنة ، واستغلالا للفوضى الشرسة ، فتغرق من جراء ذلك مدينة السلام في بحر من البؤس والعذاب لا حدود له ، وكثيرا ما أفاقت على رماد الحرائق تتخللها شرارات تنطفىء لتشب بعد حين .

وبغداد ساحة متسعة تلاصقت فيها العشائر في احياء غير متباعدة ، حملت معها خصائص العشيرة الجامدة ، والروح القبلية المقيتة ، ووجدت في متناقضات العاصمة العراقية ما زاد تماسكها ، وشد من أواصر تقاربها ، فاصبح (ابن الطرف) هو ابن العشيرة المنصور دائما في الحق ، وفي الباطل .

ذلك هو الوجه القبيح للحاضرة العباسية ، شرور الانسان بأجلى صوره ، وتعصب مقيت يقلب النفس ويعكّر المزاج ، ويورث السقم والسأم .

وبرغم هذا كله ، فهناك أشعة خيّرة كانت تنفذ الى دروب المدينة الخالدة وأزقتها الضيقة الملتوية ، تتمثل في مجالس العلم وحلقات الدراسة ، تعقد في ابهاء الوجهاء . وفي الجوامع ذات المنارات الطاعنة في السماء كأنها تصل بين مواضعات الارض واسرار السماء الغارقة في اللانهاية . يتواصل نقاش المفكرين في دكاكين الوراقين ، ويعكفون على استنساخ أغلى وأبرع لوحات الحضارة القديمة ونتاج القرائح المتفتحة .

وجه جميل لا ريب فيه ، يوحي بصفات الخير من تسامح ، وتثمين للكفايات ورعاية للمواهب بعيدا عن اعتبارات الدين والمعتقدات ، وهذا يمثل أسمى صور الحضارات ، ويبعد بعداً شاسعاً عن البداوة ذات المناهج الضيقة . في جو صاف كهذا يمكن ان نجد التفسير الشافي في اعتماد الدولة

العباسية على كثير من غير المسلمين في ادارة شؤونها الخطيرة دون لمز أو غمز ، كما يحدث الآن في أفضل المجتمعات المتقدمة ، التي يعنيها الرجل كانسان قادر كفوء ، ولا شأن لمعتقد في عمله ، إنّ العقيدة اسلوب في العبادة يشد العابد الى معبوده .

ونجد بين اولئك الافذاذ رجلا أحبه المسلمون حبهم لالصق الناس بهم ، واحترموه احترامهم للقابليات والمواهب ، ذلك هو ابو اسحاق ابراهيم الصابي الكاتب الشاعر المتمسك بدينه الفخور بعقيدته .

صفحات من حياته :

ولعل من أثقل الموضوعات على القلب ان يجدّ الانسان في بحث نسب ويوم ولادة ، ومسقط رأس ففي ذلك ظلال من العشائرية المستحكمة ، التي تريد أن تخضع كلّ شيء لمقاييسها الصلبة ففي رأيها سمو الادب لا يغني عن سمو النسب ، وربما اشتطت في الحكم فجعلت النسب يرفع من شأن الادب والاديب معا ويزكيهما ويقدمهما الى المجتمع الارستقراطي ليلقيا احسن القبول غير أن المتنبي شاعر العربية الفذ سخر من القاعدة تلك حين قال :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسي فخرت لا بجدودي

وكأنه لم يرد ان يكون عقوقا ، او كأنه لم يرد ان يتخلص مرة واحدة من اسلوب الفخر بالاجداد لئلا يحرمهم بعضا من المجد . قال[1] :

وبهم فخر كلّ من نطق الضا
د وعوذ الجاني وغوث الطريد

ومهما يكن من أمر فقد اصطنع ياقوت الدقة حين ذكر مولده في سنة (٣١٣هـ) ووفاته يوم الخميس لاثنتي عشرة خلت من شهر شوال سنة

(٣٨٤هـ)[٢] ، ويعارضة ابن النديم حين يجعل ولادته سنة نيف وعشرين وثلثمائة ، ووفاته قبل سنة (٣٨٠هـ)[٣] ويأتي الثعالبي ليسلك سبيلا آخر ، فهو لا يكلّف نفسه في أن يذكر يوم مولد وساعة وفاة ، بل يمدّ في عمره طويلا ، فيقول انه قد بلغ من العمر تسعين عاماً خنقها في خدمة الخلفاء وخلافة الوزراء[٤] وكلام مثل هذا لاشك في بعده عن الصواب ومجافاته الحقيقة ، اذ ليس من المعقول أن يسلخ الانسان مثل هذه المدة في الخدمة الفعلية . وذكر آخرون أرقاماً اخرى في ولادته وموته لا تجاوز ما قيل الا قليلا ولا جدوى في مناقشتها . والمهم أنه عاش في عهد بني بويه ، وهم من الامراء المتغلبين على خلافة بغداد ، نام التاريخ عن اصولهم وفروعهم حتى استيقظ على المؤسس أبي شجاع بويه الذي لعب دورا خطيراً في نزاعات المنطقة ، ولااعتبار بعدئذ لما ذكر من أن اصولهم ترتبط بالملك الساساني بهرام گور ، فذلك ـ على الاغلب ـ من زلفى المؤرخين ، حين ترفع الاقدار انسانا ، وتمنحه الامكانات للبذل والمنح .

وقد استطاع أحمد ، أحد أولاده الثلاثة أن يدخل بغداد ويفرض تسلطه على الخليفة المستكفي وينتزع منه لقب معزالدولة وأمير الامراء . ولم يبرأ البويهيون من المظاهر الهمجية ، فقد أقدم معزالدولة على سمل عيني الخليفة[٥] .

وحكم العراق عزالدولة بختيار بعد وفاة والده معزالدولة وكانت ولاية فارس تحت سيادة عضدالدولة ابن ركن‌الدولة واستطاع هذا أن ينتزع زعامة الاسرة باخماده الاضطرابات بين الجند في بغداد ، بناء على رجاء ملح تقدم به ابن عمه حاكم بغداد ، ودار في خلده أن ينتزع السلطة منه ، ولكن ركن الدولة توسط في الامر فانسحب موقتا منتظرا سنوح الفرصة ، ولم يطل انتظاره ، فقد اتيحت له اذ دخل في معركة وهزم بها جيوش بختيار الضعيف ، ومن ثم وحّد المملكة تحت سلطانه .

ولما مات عضد الدولة سيطر أبناؤه الثلاثة على الدولة المترامية الاطراف ، وكانت بغداد من حصة ابنه صمصام الدولة الذي أشفق على صاحبنا أبي اسحاق الصابي فأطلقه من سجن أبيه الحاقد .

يروى حفيد أبي اسحاق : غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال الصابي في الهفوات النادرة[٦] عن مبدأ الصابئة لا تصلح أن تكون بينة علمية ولكنها تنفع كطرفة مستملحة لا بأس في ايرادها ، قال :

في سنة (٢١٥هـ) مرّ المأمون بديار مصر في طريقه الى بلاد الروم للغزو والجهاد فتلقاه الناس وفيهم جماعة من أهل حران ، يلبسون الاقبية ، ويرسلون شعورهم ، فأنكر المأمون زيّهم ، وسألهم عن حالهم فأجابوا : نحن الحرنانية ، فقال : أنصارى أنتم أو مجوس ، فاضطربوا وقال لهم : اذن أنتم الزنادقة عبدة الاوثان ودماؤكم حلال ولا ذمة لكم ، وخيّرهم الاسلام أو انتحال دين من الاديان التي ذكرها الله في كتابه أو القتل ، ولكن بعض الفقهاء دلّهم على أن يتسموا بالصابئين ، فهو اسم يذكره القرآن الكريم ففعلوا وغيروا زيهم وحلقوا شعورهم ، وتركوا لبس الاقبية ذلك اليوم .

ليس من المعقول أن يجهل قوم سلفهم ومعتقداتهم بهذا الشكل ثم يرضوا أن يسموا بالصابئة بناء على اشارة عابرة أبداها أحد الفقهاء . ولا يمكن أن يجوز أمرهم على الخليفة المثقف . قائد المعركة الفكرية العنيفة في خلق القران بهذه السهولة ، وان وجد فريق منهم ظلوا على وثنيتهم ، فينبغي الا يكونوا من صابئة حران . فحران مدينة عرف أهلها بعمق الثقافات الدينية ، وقيل أن المأمون لم يكن مرتاحاً من هذه الفئة الصغيرة جداً ، المتمسكة بمعتقداتها جدا ، ففكر في اضطهادهم وسرعان ما عدل عن ذلك احتراماً لمزاياهم العقلية واكراماً للعدد الكبير من مفكريهم وعلمائهم . ومثل أية طائفة صغيرة معتزة بشخصيتها كانت تتعرض بين حين

وآخر الى الاضطهاد ، ولذا سعى أبو اسحاق الصابي بعد تقلده دواوين الرسائل والمظالم للمطيع والطائع أن يستصدر مرسوماً لمعاملة أهل ملته باللين والسماحة في مختلف البقاع الاسلامية(٧) .

كان أسلاف الصابي يعرفون بصناعة الطب ، وخضوعاً للتقليد المتبع في الاسرة درس أبو اسحاق الطبّ وضمّ اليها الهندسة وخدم في البيمارستان ، ولكن إحساساً أدبياً صادقاً كان يدعوه بالحاح الى الشعر والكتابة ، فلبّى الدعوة حتى غدا علماً خفّاق الراية يشار اليه بالبنان ، وأتاحت له هذه الصناعة أن يعاشر فضلاء الناس وكبارهم ، ويخدم ذوي السلطان على مختلف مراتبهم ، فذاق حلو الحياة ومرّها ، وكأنه أراد أن يقتحم المجتمع الاسلامي ويتحدى شعوره بالغربة في بيئة متعصبة فأشغل بعض المراكز الحساسة ، التي كانت حكراً لفريق من الناس دون سواهم .

وكان مبدأ احترافه الكتابة حين سمع الوزير أبو محمد المهلبي الملقب بالاستاذ بأمره فأشار على عمّه أن يستدعيه اليه ، وكان شغفه بالعلوم واعتكافه على دراستها جعلاه يتردد في المواجهة . ولكنه اضطر أخيرا تحت ضغط الحاجة الى المورد ، لمعالجة النكبة التي حلّت بأموالهم .

ويتحدث الصابي عن ذلك فيقول(٨) فلمّا رآني تقبّلني ، وأقبل على رسم لي في الملازمة واستطاع أن يبدي تفوقاً ملحوظاً حين أجاب على عدة رسائل وردت من جهات مختلفة ، من غير اخلال بالمعاني فحسن مركزه ، وعلا شأنه على جماعة الكتاب في الديوان ، وفيهم الأقدم والأسنّ ، مما أثار حفيظتهم ، فلزم بعضهم منزله وجداً وغضباً ، وتعالل البعض الآخر ، ولكن أبا اسحاق عرف كيف يداري ويتلطف ويغضّ الطرف على كثير من قوارص تقال في حقّه ، حتى صيّرهم اخواناً وأصدقاء .

وكان استعداده للكتابة سريعاً لم يخيب ظنه مهما كان مزاجه ،

وطبيعة الاجواء المحيطة به فقد ذكر أنّه كان مشتركاً في مجلس الوزير المهلبي يشربون ويلهون مع أعظم كتاب الديوان ، وقد لعبت الخمرة في رؤوسهم ، وأخذت النشوة منهم كلّ مأخذ واذا برسول الامير معزالدولة يتقحم عليهم ناديهم ويلقي اليهم برغبة الامير في صنعة كتاب الى صاحب كرمان يخطب فيه ابنته لبختيار ، فأجال المهلبي نظره في الكُتّاب ، فلم يجد فيهم من ينهض يعمل كهذا مع السكر • وكان الصابي في الوقت نفسه يتشوق لمثل هذه المهمة ، ولكنه لم يكن يجرأ على الافصاح عن ذلك ، ولابد من اهتبال الفرصة ليثبت قدمه في صناعة الكتابة ويبرز على شيوخ كتّاب الديوان ويتمنى في قرارة نفسه أن يعهد اليه الوزير بهذه المهمة فلما حانت الفرصة شمّر عن ساعد الجد ولم تستطع الخمرة أن تسكت فيه تطلعاته وقابلياته، فاقتضب وأطال وأبدع فلما انتهى ، قرأه المهلبي وأعجب به وأكبره وقال[٩] ، هذا كتاب حسن دال على الكفاية ، ولو كتبه صاحبه متروياً لكان عجباً ، فكيف اذ يكتبه منتشياً• ثم أجلسه المهلبي حيث أجلسته الكفاية • ولم تحرم دابته من هذا التكريم فقدّمت على غيرها من دواب الكتاب •

وحسن تصرفه في الكتابه نتيجة توفره على قراءة القرآن وحفظ آياته الكريمات حفظاً يدور على طرف لسانه يتمثّل بها في أحاديثه ويستشهد بها في رسائله ، وقد استطاع بمهارة أن يضفي على نفسه مظهراً اسلامياً شاملا زاد في محبة الناس له ، وقرّبه كثيراً الى قلوب رؤسائه ومرؤسيه ، فقد كان يصوم رمضان تطلعاً الى حسن العشرة ، ومشاركة في الموائد الحافلة التي تنصب في الامسيات الرمضانية ، وبرغم هذا كله فلم يعتنق الاسلام تعصباً لدينه وحرصاً على عقيدته ، وعرضت عليه الوزارة على أن يسلم فأبى ، وقدّم له عزالدولة ، مبلغ الف دينار • مقابل لقمة من فول أو شيء من حمام فاعتذر ، لان دينه يحرم عليه أكل ذلك[١٠] •

ولم يقف تعصبه لدينه حائلا دون تقدمه ولم يفسد عليه معاشرته المسلمين ، بل مضى قدماً بتسلم المراكز الرفيعة ، فقد تقلد في خلافة المطيع دواوين الرسائل والمظالم تقليداً سلطانياً وأسند اليه معزالدولة البويهي ديوان رسائله ، ثم خدم عزالدولة بختيار ، وفي هذا التقدم المطرد اقترف غلطة كلفته الكثير من المتاعب ، ويبدو أنه لم يكن قادراً على أن يلطف من حقد بختيار على ابن عمه عضدالدولة فيما تبودل من رسائل ، فقد كانت أنفاسها حافلة بالحقد والتعالي ، وربما كان بختيار يدفعه الى ذلك دفعاً ، لرغبته الاكيدة في أن يكون المقدّم على بني بويه قاطبة مما أحفظ عليه عضد الدولة ، فقد جاء في بعض الكتب على لسان الخليفة في حق بختيار : (وقد جدد له أمير المؤمنين مع هذه المساعي السوابق ، والمعالي السوامق التي تلزم كل دان وقاصي وعام وخاص أن يعرف له حق ما أكرم به منها ويتزحزح عن رتبة المماثلة فيها) ، فاعتبره المسؤل الاول عن (رتبة المماثلة) هذه[١١] وتناسى طيش بختيار ، فلما دخل بغداد منتصراً للمرة الثانية اعتقله سنة ٣٦٧هـ ، ويذكر صاحب وفيات الاعيان[١٢] ان عضد الدولة أطلقه من سجنه سنة ٣٧١هـ ، ولكن الحموي نقلا عن حفيده هلال بن المحسن لا يشير الى من أفرج عنه ، والراجح أنه مكث في السجن حتى أطلقه صمصام الدولة ، عندما ملك بعد وفاة أبيه[١٣] .

وكأني بعضد الدولة أراد أن يستغل محنة الصابي فأمره أن يؤلف كتاباً في أمجاد آل بويه ومآثرهم وقد كان ذلك الحل الوحيد للرأفة به والابقاء على حياته ، فعكف على تأليفه ، وسماه التاجي نسبة الى لقب عضد الدولة « تاج الملة » ويذكر الثعالبي[١٤] : انه اشتغل بذلك في منزله وليس في السجن كما ورد في بعض المصادر ، وأنفق من روحه على تقريظه وتأنق كثيراً في تصنيفه ، ولكن واشياً أفسد عليه الامر ، فقد سأله عما يعمله

بعد أن رأى انهماكه ، فأجاب أبو اسحاق : أباطيل أنمّقها ، وأكاذيب ألفّقها .

ولا ريب في برائته من هذا القول فليس لمثله تلك الجرأة وهو يعاني شدائد الاعتقال أن يتفوه بذلك ولا بأقل من ذلك وقد عرف بدماثة الخلق ولين الطباع ومداهنة الناس جميعاً ومهما يكن من أمر هذه الوشاية فقد أمر عضد الدولة بأن يلقى تحت أرجل الفيلة ، فأنقذه بعض الشفعاء والمسترحمين ، بعد أن ألقوا بأنفسهم على الارض يقبّلونها بين قدمي الأمير الحاقد ، ويتلطفون باستيهاب دمه ، فوافق ، وكان الموت أخف من استحيائه ، اذ قبض عليه ، واستصفيت أمواله ورمي في غياهب السجن[١٥] .

وقبل أن تختم هذه اللمحات عن حياته لابد لنا أن نقف عند خبر مهم يدل على طموح صاحبنا أبي اسحاق ، الذي شاءت المقادير أن يسقط من عليائه ويتدحرج عن مراتب المجد ، فقد طمح في يوم من الايام أن يقف المتنبي على بابه يمدحه بقصيدتين مقابل خمسة آلاف درهم ، وبوساطة أحد التجار ولكن حكمة المتنبي أبت أن يجيبه خوفاً على سلامة الصابي من عقارب الحسد ، التي ربما تحركت في صدر المهلبي قال[١٦] أبو الطيب : قل والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا أوجب أحد من الحق ما أوجبت ، وان مدحتك تنكر لك الوزير ، وتغيّر عليك لانني لم أمدحه ، فان كنت لا تبالي هذه الحال فأنا اجيبك الى ما التمست ، وما اريد منك منالا ، ولا عن شعري عوضاً .

ولا ريب أن تلك طرفة مستملحة ، من الطرف التي غلفت حياة الصابي لا تثبت أمام التدقيق والتأمل ولم يروِ تاريخ الادب أن المتنبي كان يمدح بوساطة التجار ، وكان ذا كبرياء وعزة تصدانه عن أن يمدح من هو في منزلة الصابي ، وهو الذي غادر مصر متخفياً تنزف جراح قلبه ألماً وندماً ، وقد رفض باباء مدح المهلبي برغم المغريات الكثيرة التي قدّمت

له ، فتلك الدوحة لا يمكن أن تطأطىء رأسها لريح الصابي الواهنة • ومما يدل على تهافت الخبر صدوره عن ابن أبي اسحاق ، رفعاً لشأن والده •

وقد خلّف الصابي آثاراً مختلفة منها كتاب عن أخبار اسرته لم يصل الينا ، وكتاب في اختيار شعر المهلبي ، ومجموعة رسائله حققها الامير شكيبر أرسلان بصورة سريعة وتعتبر وثائق تاريخية مهمة تمثل عصره خير تمثيل ، وهناك كتاب رسائل الصابي والشريف الرضي ، تستعر بالعواطف الجياشة المتبادلة بين الرجلين الاديبين الشاعرين ، واسلوبها خير من اسلوب رسائله • أما كتاب التاجي فارجح عدم وجوده ، اذ لم يُقدِم الصابي على كتابته ، وأعتقد أنه خبر مهلهل النسخ أراد به المترجمون والمؤرخون اضافة جوانب جديدة مثيرة لصورة البلوى التي أحاطت بصاحبنا ، فالتاجي لم يصل الينا وان أشارت دائرة المعارف الاسلامية(١٧) الى أن بعض المؤرخين المتأخرين استشهد به مثل (مير خواند) في النص الفارسي ، واقتبس منه ابن مسكويه دون الاشارة اليه ، كما نسب الى سنان ثابت ، وربما كان لادعاء آل بويه القربى للاكاسرة ، وتأليف كتاب بالعنوان نفسه في حق انوشروان مما زاد الامر اختلاطا وأوقع بعض المؤرخين في الوهم •

رسـائلـه :

جاء في اعتذار المعتذرين عن الصابي عن (رتبة المماثلة وما شابهها)(١٨) التي أغاظت عضد الدولة قولهم : مثل مولانا لا ينقم على مثله ما كان منه ، فان كان في خدمة قوم لا يمكنه الا المبالغة في نصحهم ، ولو أمره ، مولانا مثل ذلك في أبيه لما أمكنه المخالفة(١٩) •

تلك حقيقة لا مراء فيها ، فليس في عصره من مستخدمي السلطان والخلفاء والامراء من يستطيع أن يرفع رأسه ، ويفتح فاه ليقول : مولانا : عيب هذا لا يصح ولا يليق بمقامك أن تفعله لان نتائجه على المدى البعيد

ليست في صالح عظمتك • ولكن عظمته لا يعي ولا يسمع النصح الصادق فغرور السلطة قد غلّف حواسه الخمس أو الست دون كلمات الواقع ، وأقرب الناس الى السلطان أكثرهم قدرة على النفاق والملق وصياغة عقود المدح •

حقاً ••• لو طلب السلطان من أبي اسحاق أن ينشىء كتاباً في ذم أبيه لفعل صاغراً وأجاد فالمفروض أن يجيد ، وان يبتدىء ويختتم بدعاء حار يرتفع الى عنان السماء بطول العمر لعظمته •

هذه الظاهرة مفروضة في ذلك العصر ، وهي تحدد صفات الكاتب المنشىء في ديوان الرسائل فمهمته الاولى أن يرضي سيده أولا وأخيراً : وان يقبّل يديه كلما التقاه ، وان يقول (نعم) وما الى ذلك من أحرف الجواب •

ولكن ماذا قال القدماء في حقه وفي حق رسائله ؟ : قال ياقوت : كان المهلبي لا يرى الا به الدنيا ويحنّ الى براعته ويصطنعه لنفسه ، ويذكر[٢٠] مؤلف روضات الجنان ، أنه كان من أفراد الدهر ونجائب الزمان ، ومعروفاً بالفضل والنبالة والسبق على سائر الاماثل من الاقران ، ولعل أبا حيان[٢١] التوحيدي خير من أجاد وصفه وأبرع من شخص داءه ، فهو بنظره : أحبّ الناس للطريقة المستقيمة ، وأمضاهم على المحجّة الوسطى ، ثم يلاحظ التوحيدي بعد أن جذبته حاسة الناقد النافذ البصر يقول : وانما ينقم عليه قلة نصيبه من النحو ، وليس ابن عباد في النحو بذاك ، ولا كان أيضاً ابن العميد الا ضعيفاً ، وكان يذهب عنه الشيء اليسير[٢٢] •

ثم سرعان ما يذهب عن صاحب الامتاع والمؤانسة تبصره وتأنيه فينطلق متحمساً في عبارة ناصعة كأنها سلاسل الابريز يقول : وله فنون

في الكلام ما سبقه اليها أحد ، وما مائله فيها انسان ، واني لأرحم من لا يسلّم له بهذا الوصف ، لانه أما أن يكون جاهلا ، وأما عالماً فان كان عالماً فهو ملوم ، لانه يدل من نفسه بدافع علمه ـ على حسده ـ والحاسد مهين ... وهكذا انتهى التوحيدي متعصباً صلباً قد أغلق الطريق على الناقدين .

والقدماء ـ كشأن بعض أهل العصر ـ اذا أحبّوا وأمّلوا رفعوا الى العلياء ، وان كرهوا وجفوا سلقوا الانسان بألسنة حداد ، فلا توسط في الأمر .

رسائل الصابي وثائق تاريخية ، ذات أهمية معبرة عن احداث عصره ، فمركزه خطير لانه يجمع بلغة اليوم بين منصبي مدير التحرير ووزير الخارجية ، وينبغي أن تكون الرسالة ذات اسلوب رفيع مؤثر في الترهيب والترغيب وعليه أن يتقمص شخصية الخليفة أو الامير ، فينطق بلسانه ويفصح عن جنانه .

والاسلوب الجيد مطلوب حتماً ، والفكرة الحسنة مرغوب فيها فاذا تفوقت الرسالة شكلا ومضمونا نالت القبول ، واستوجبت الاطراء والثناء وأحدثت في الوقت نفسه التأثير المطلوب فيغدو الكاتب وحده هدف الذين توجه اليهم الرسائل لانه يتحمل المسؤولية ، على أنه العقل المدير والقلم المجبّر ، فهو اذا شاء تلطف ما وسعه التلطف ، وان شاء شحن رسالته بالقسوة البالغة ، والكلمة الجارحة ، فلفظة (المماثلة) التي وردت في رسالته الى عضد الدولة جرّت عليه الويلات وقرّبت أجله ، ومسحت نعمته ، فقد حقد عليه من أجلها ، وأسرّها عضد الدولة في نفسه ، حتى اذا واتته الفرصة عند دخوله بغداد مرة ثانية ، انتقم منه أعظم انتقام ... فالمملوك لا يرعون سالف خدمة ، ولا يغفرون الزلّة وقد اعتذر له المعتذرون ، ولم يُجدِ اعتذارهم ، فقالوا له ، مثل مولانا لا ينقم على مثله

ما كان منه ، فان كان في خدمة قوم لا يمكنه الا المبالغة في نصحهم ، ولو أمره مولانا بمثل ذلك ـ اذا استخدمه ـ في أبيه لما أمكنه المخالفة(٢٣) .

تلك حقيقة المهمة التي يجب أن يضطلع بها كاتب الدولة ، وكان عضد الدولة يدرك حسن تصرفه في الكتابة ، ويعلم أنه من اليسير على الصابي أن يتحاشى هذه اللفظة ، ويتنكب ذلك التعبير الجارح وكأنه عرف يثاقب بصره ان الصابي كان شديداً عليه منكراً لافضاله ، متحمساً لابن عمه أكثر مما يجب ، ومن هنا صعب الغفران ، واشتدت العقوبة ، وزال المجد الى غير رجعة .

وفي ضوء مفاهيمنا التحررية ، هذه الايام ، فنحن نرفض ، ولا نستسيغ تلك الديباجة التي يصوغ بها رسائله الموشحة بمظاهر التعظيم ، وعقود المدح ، والتذلل الظاهر ، كأنها الديباجة التي يخاطب بها المخلوق خالقه ، ورب معترض يقول : ان هذا الامر قائم في عصرنا ، يستريح اليه كثير من الرؤساء ، ويحثون عليه فما بالك بسمت ذلك العصر ومنهج كتابه .

ومهما يكن من أمر فان النفس لا تقبل على اسلوب ، تجري فيه ألفاظ التبجيل جريانها عند تقديس العابد معبوده ، والعاشق معشوقه .

واسلوب الصابي قائم على اختيار الكلمة المناسبة والجملة المحبوكة ، في كثير من السجع الخفيف الظل المحتمل جدا في غير حرص على الفاصلة الواحدة ، اذ سرعان ما تفلت منه الى الترسل المستحسن مع بعض المحسنات اللفظية المستساغة ومحاولات كثيرة للتطابق والتجانس ، انظر هذا الجزء في الشفاعة لأخ له : (قد يكون لعمري من ذوي الارحام الشابكة ، والقرابات الدانية ، من يتمادى في العقوق ، ويذهب عن حفظ الحقوق ، ولا يسع ترك تالفه حتى يرجع واستصلاحه حتى ينزع ، فان تجشم الاعراض عنه

لرياضة تقصد ، أو عاقبة نفع تحمد لم يبلغ به الى قطع المعيشة ، ومنع المادة لأن قباحة ذلك بمن يستعمله أكثر من مضرته بمن يعمل معه ، وقد قيل : أن الملوك تؤدب بالهجران ، ولا تعاقب بالحرمان : هذا في الاتباع والاصحاب ، فكيف في الاقران والاتراب[٢٤] .

ورسائل الصابي تنقسم الى وظيفية ، وهي تلك التي يقتضيها العمل الديواني ، وتستوجبها الاوامر السلطانية ، وتنال من هنايته الشيء الكثير ، ويحتفل في انشائها احتفالا ملحوظا لتصل الهدف المنشود وتصيب الغاية المرجوة ، فيرتدع بها العاصي ، ويزدجر المتمرد ، وتستكين بها النفس المرتابة ، ويطمئن اليها الصديق الوفي الودود .

والى ذاتية ، انشئت من غير أمر ، اقتضتها حاجات النفس وأحاسيسها ، وانطلق فيها على سجيته واتيح له فيها ان يبتعد بعض الوقت من الكتابة في الشفاعات وهدايا الحيوان وما الى ذلك ..... الى رحاب النفس الواسعة ،وعواطفها المتفاعلة ، وخير ما يمثل ذلك : رسائله المتبادلة مع الشريف الرضي فهي تنبض بالحسّ ، وتتصف بالدماثة ، وتشع منها الحيوية ، وان كانت دون مستوى رسائل الشريف ، لأنها تفوقه حسن تصرف ، وتشقق معان ، وطول نفس وحسن بيان ، وقوة دليل ..

ورسائل الصابي هذه خير من رسائله وأكثر جودة ، فهي تنبع عن نفس صادقة معجبة بالشريف . تحنّ الى معاشرته ، وتدفأ الى قربه وتقبس من قوة اسلوبه ، فتقتدي بفقراتها ، وتقفو مفرداتها ، وتستعير بعض معانيها والتفاتاتها ... يقول أبو اسحاق[٢٥] : وأنا أعيذ سيدي الشريف الجليل بالله من عين الكمال ، وأسأله أن يحفظ على زماننا ما له فيه من الجمال ، وينهضني خاصة بما طوّقنيه من منته ، ووالاه عندي من نعمه ، وأودعنيه من ضروب برّه وتطوّله ، وان يرزقني فسحة في المدة ، وزيادة

في القوة والتجدة ، حتى أبلغ ما يستحقه علي من الشكر قولا ، ووسعا وسعيا وكان الشريف قد ارسل اليه يعزّيه بوفاة ابنه ابي سعيد سنان منها : ـ [٢٦] . الى كم جعلني الله فداك هذا الهمّ والجزع وثم هذا القلق والهلع ، وأنت المرءُ يوصف حلمه ، والجليد يعرف حزمه والصبور على تحامل النكبات ، والقوي على قراع الرزيات ، فالتفاتا الى ورائك ، واعتبارا بقربائك ، هل أبقى الزمان على آبائك فيبقى على أبنائك ، أم هل اضرب على اصولك فتأمل ان يضرب عن فروعك ؟

وبرغم تأثر الصابي بالشريف نثرا وشعرا الاّ أنه لم يستطع أن يشق غباره ويصل الى مرتبته فصاحبنا يبدو في رسائله ضيق الافق ، اقل علما ودراية ، ولعل الكتابة في الديوان وضعت الاغلال في انطلاقته الانشائية .

وسر العلاقة المتينة بين الكاتبين تعود الى طول الصحبة والاعجاب المتبادل ، وتفاني الصابي في خدمة الشريف لدى الخلفاء واستخلاص حقوقه النقابية منهم ، ومن الامراء ، وهذا يفسّر الجزع الشديدالذي ألمّ باشريف عند وفاة رفيق العمر ، حتى انه تمنىّ الموت فقال [٢٧] (.. وحننت الى قرب الوفاة ، وسئمت تكاليف الحياة) ، ويقول : ويالبته صبّحني بها قبله) ثم يعترف بفضل الصابي الادبي عليه ، وتأثيره فيه ويقول [٢٨] : ـ وسلبنيه الزمان آنس ماكنت بفضله ، وأحوج ، ماكنت الى مثله شاحذا لخاطرى في المناقشة ، وحافظا لسرى عند المباثة .

ونظم غير قصيدة في الاشادة بفضله وصفاء اخوته ، ورثاه افجع رثاء ووصف اثر رسائله في الخصوم فغالى وبالغ ، ومع ذلك فهي صورة المأساة العميقة في نفس الشريف على فقد صديقه الحميم قال : [٢٩]

حُمُرٌ على نظر العدو كأنمّا ... بدم يخَطُّ بهن لا بمداد

يُقدمن اقدام الجيوش وباطلٌ ... ان ينهزمْنَ هزائم الأجناد

فقَرٌ بها تُمسي الملوك فقيرةً ابدا الى مبدا لها ومعاد
وتكون سوطا للحرون اذا ونى وعنان عنق الجامح المتمادى
تَرْقى وتلدغ في القلوب وان يشا
حطّ النجوم بها من الأبعاد

* * *

واسهم الصابي في كتابة رسائل من نوع آخر هي رسائل الصيد ، ولايمكن ان تعتبر هذه نوعا ثالثا لأنها تتصل اتصالا وثيقا بالعمل في الديوان، فالمفروض في كُتّاب الديوان ان يكونوا ضمن موكب الامير او الخليفة ، ويتحتم عليه ان يصف الحيوان الطارد والمطرود والات الصيد ، وهو لم يبرأ من تأثير رسالة عبدالحميد الطردية ، ولامن مفرداته ومفردات ابي نواس وابن المعتز وغيرهما ممن كتب ونظم في هذا الباب ، حتى الصور الطردية ، التي وردت في شعر الصيد العباسي تجدها مرسومة فيما كتب قال (٣٠) : تعدّه الخاصة نزهة وملعبا ، والعامة حرفة ومكتسبا ، الصيد الذى فاتحته طلاب لذة ونظر وخاتمته حصول مغنم وظفر ، وقد اشتركت الملوك والسوقة في استجماله ، واتفقت الشرائع المختلفة على مزاولته وتعاطيه ، وهو رائض الابدان ، وجامع شمل الاخوان ، وداع الى اتصال العشرة منهم والصحبة وموجب لاستحكام الالفة بينهم والمحبّة ...

* * *

ونعود ثانية الى أبي حيان التوحيدى ، اذ يذكر لنا أنّ الصابي كان متأثرا ومحتذيا مثال كاتب الدولة الطولونية محمد بن عبد كان (٣١) ، وقد يصح هذا ، ففي القوالب والاساليب الوظيفية وانهاء الرسائل وابتدائها .. قد يكون التقليد كبيرا ، ولكننا لانستطيع ان نحدّ التأثير بكاتب دون آخر فالصابي رجل اجتماعي يحسن المجاملة ويبرع في كسب الاصدقاء ولولا الحسد يعمر قلوب الناس لما استطعنا ان نجد له خصماً واحدا يوغر قلب

الملوك والامراء عليه ولكنها الطبيعة البشرية تتقاتل غرائزها لأوهى العلل ، ولهذا كان الصابي هدفا لسهام البعض ومع ذلك ، فقد كانت صلته بالادباء والشعراء على اوثق ماتكون الصلات ، وهذا ما اتاح له سعة التأثر ، وتبادل الآراء والاطلاع الفسيح على حقائق الادب والادباء والكتابة والكتّاب .

وتعتبر صلته بالصاحب بن عباد ذات لون فريد في المراسلات والمواصلات والمتاحفات وقد سمحت له ظروف الحياة مرة ان يخاطبه بالكاف ، ولا يرفعه عن رتبة الاكفاء (٣٢) ولا ريب عندى انهما كانا يتبادلان النظر ، ويتهاديان القريض والتقريض ، ويقود كل واحد منها صاحبه الى النور ومن هنا تقع الممازجة والانسجام وتوارد الخواطر ، وكان ابن عباد يحبه اشد الحب ، ويتعصب له ويتعهده على بعد الدار بالمنح ، وكان يتمنى ان ينحاز ابو اسحاق اليه ويضمن له الرغائب على ذلك تشوقا وتشرفا ، ولكن الصابي احتمل النكبة ، ولم يتواضع للأتصال بجملة الصاحب ، بعد ان كان من نظرائه ...

هكذا يقول ياقوت الحموى (٣٣) ، والحقيقة ان تعصب الصابي لمعتقداته كان شديدا ، وكان يخشى ان يستهوى اقاربه الى الاسلام فيسلموا في غيبته ، وقد سبق له الاعتذار عندما دعاه عضد الدولة الى شيراز للهاجس نفسه ، الذى كان يدور في خلده (٣٤) .

وكان الصاحب كثيرا مايقول : كتاب الدنيا وبلغاء العصر اربعة : — الاستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبدالعزيز بن يوسف ، وأبو اسحاق الصابي ، ولو شئت لذكرت الرابع .. يعني نفسه (٣٥) ولو تأملنا هذا القول لرأيناه على جانب من الصواب غير قليل ، فقد برزت في هؤلاء الاربعة الافذاذ خصائص تقترب بعضها من بعض كثيرا وتلتحم كثيرا وليست تلك الخصائص بنات العصر انما انحدرت من العصور السالفة منذ بزوغ الاسلام ، فلا تعدم ان تجد كتابة مزخرفة بالمحسنات البديعية يسوقها عفو الخاطر سوقاً ، ومن

بدرى فلعلّ بعضهم كان يستذوقها فيحتفل في صنعتها ويتعمدها احيانا : ولمّا كان القرن الرابع كانت هذه السمات امارات فارقه لايستغنى عنها اى كاتب يريد ان يشق طريقه الى الصف الاول ، فالتزام السجع ، واقتحام بعض موضوعات الشعر وترصيع النثر باطايب النظم وبالامثال والتحول [٣٦] من الايجاز الى الاطالة : هذه الخصائص تسبغ على قول الصاحب كثيرا من المعقولية ، وشيئا غير قليل من الصواب فهم حقاً ، من بلغاء العصر • ولكننا لانستطيع ان نتفق مع الصاحب بانّهم وحدهم قد احتكروا بلاغة العصر وكتابة الزمان ، فالدنيا العريضة في عصرهم كانت تزخر بشيوخ الكتابة واساطين النثر ، وحسبك ابو حيان علما من اعلام هذا القرن ، وان عاش في اخرياته ، مما يضع في ساحة النثر منافسين اشداء للكتّاب الاربعة •

والتباين بين الاربعة قائم وواضح كل الوضوح : فعبد العزيز بن يوسف ، وابو اسحاق الصابي في سمت واحد ، ونهج مماثل ، كلاهما كان في خدمة آل بويه ، واختص الاول بعضد الدولة وبعض اولاده فاخلص لهم الخدمة فاطالوا صحبته ، وهَنَأَ بعيشة من غير كدر وتنقيص ، وربما كان لبعده عن بغداد اثر في صفاء العيش هذا ، الذى تمتع به طوال حياته في حين كان صاحبه المنكود في خضمّ الصراع في بغداد المضطربة بين الخليفة والامراء المتغلبين ، والوزراء المتنافسين ، فاكتوى بنيران الصراع السياسي وانتهى كما ينتهى كل من خذله الحظ • والمماثلة بينهما في الاسلوب الكتابي كبيرة جداء حتى انه لو رفع اسم احدهما ووضع مكان الاخر يصعب على المتمعن الفاحص ان يعرف لمن تكون الرسالة ، ولا عجب في ذلك فوظيفة الرجلين واحدة ، ومشكلاتهما متماثلة ، وكانا يتبادلان الرسائل ويصدران عن عواطف متمازجة ، وقد حباهما الله دماثة الخلق بدرجة واحدة ، وقد كان عبدالعزيز ثاني اثنين ممن القيا بنفسيهما على الارض ، يقبّلانها بين قدمي عضد الدولة ليلين ويعفو عن اعدام الصابي سحقا بقوائم الفيلة •

واما الصاحب وابن العميد فميزتهما ميزة الرئيس على المرؤوس ،فهما الآمران دائما والمتصرفان بامرهما ، ومركزهما لم يسبق له شبيه في تاريخ الوزارات ، فقد تركا طابعهما على عصريهما علما وادبا ورياسة ولم يكنّ الاميران اللذان يحكمان باسمهما غير شخصين باهتي الظلّ قد اقعدهما اللهو والمرض عن ممارسة الحكم وقد اطمأنت نفساهما الى الثقة الكبيرة في شخصي الوزيرين ، حيث وجدا علما عزيزا ، ومعرفة واسعة باللغة والعلم والادب والشعر ، وقد استحق ابن العميد ـ خاصة ـ لقب رب السّيف والقلم .

وبطبيعة الامر ، لم تكن هذه الصفات الفذة متوفرة في الكاتبين الموظفين الصابي وابي القاسم واستتبع ذلك هبوط المستوى الكتابي عن صاحبيهما الوزيرين فظهرا أقل كفاية في صياغة الجملة الموفقة وانتقاء الكلمة الملائمة ثم انت عادم في كتابتهما تلك الروح الآمرة الشفافة المرحة القادرة على ان تفعل ما تريد مع تواضع جمّ عرف به ابن العميد ، ولو تكبّر وتعالى لما لامه احد على ذلك .

ولابد ان يقع الفرق والتمايز بين اربعة ناثرين كبار ، اختلفت مهنهم ، وأمزجتهم وتناءت أصقاعهم وسار ذكرهم في الركبان .

* * *

ويستخلص من سيرة الصابي : انه تمتع بشعبية واسعة ، واستهوت رسائله كثيرا من المتذوقين ، فقد قال (٣٧) فيها احد الشعراء :

أصبحت مشتاقا حليف صبابة ... برسائل الصابي أبي اسحاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجى ... ذوب البراعة ، سلوة المشتاق
لايبلغ البلغاء شاؤ مبرّز ... كتبت بدائعه على الاحداق

وقال آخر : (٣٨)

يابؤس من يمنى بدمع ساجم ... يحمى على حجب الفؤاد الواجم
لولا تعلله بكأس مدامة ... ورسائل الصابي وشعر كشاجم

كتب الدكتور زكي مبارك في كتابه القيمّ النثر الفني في القرن الرابع فصلا مستفيضا عن الصابي ومما لاحظه عليه أنه : ـ

كان يجتهد في استغلال ماترك الأولون من بديع المنظوم والمنشور بطريقة ساحرة ، خفي بها على اكثر معاصريه ما اخذه من روائح الادب القديم ، وانه نجح في ناحيتين •

١ ـ ظهوره بمظهر المتفوق في لغته الفنية الزاخرة حتى وسعت من ضروب التعابير والاخيلة والصور في الموضوعات الكثيرة التي جرى بها قلمه ، فاننا لانكاد نجده يكرر معنى او يعيد لفظا الا في احوال قليلة وكتابته مع مافيها من التزام السجع سهلة مقبولة يقلّ فيها التكلف ، ويغلب عليها الطبع •

٢ ـ سعة حيلته في التوفيق بين الخلفاء والامراء والوزراء ، في عصر الفوضى وكان من العسير تحديد مايصلح في التخاطب بين تلك القوى المختلفة المتنازعة •(٣٩)

* * *

رحم الله ابا اسحاق فقد جدّ كلّ الجد في ان ينسجم مع المجتمع المضطرب ، وان ينال مانال منه الآخرون ، ونجح الى حد بعيد وفي الوقت نفسه وفق كل التوفيق في صيانة معتقداته والحرص عليها ، وأرضى المجتمع المتعصب باصطناع مظاهر الدين الاسلامي ، فصام وحفظ القرآن وكان دمث الاخلاق جدا ، حسن المعشر جدا ، كثيرا لاصحاب من طبقات مختلفة ، ولكن هذا كله لم ينقذه من المصير السيء الذى آل اليه امره في اخريات حياته ، ولا جرم : فهو واحد من ضحايا ذلك المجتمع المتناقض •

---

(١) ديوان المتنبي ـ البرقوقي ـ جـ١ ص٢٠٩ •
(٢) ارشاد الاريب جـ١ ص٣٢٤ •
(٣) الفهرست ـ لابن النديم ص١٩٤ المطبعة الرحمانية •
(٤) يتيمة الدهر جـ٢ ص٢١٨ •

(٥) دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية : مادة بويه) ٠
(٦) ص١٠ ٠
(٧) دائرة المعارف الاسلامية مادة (صائبة) ٠
(٨) ارشاد الاريب ـ الحموى ـ جـ١ ص٣٤٢ ٠
(٩) من ـ ص٣٢٦ ٠
(١٠) من وانظر الهفوات النادرة ص١٢ ٠
(١١) معاهد التنصيص ص١٥٤ ٠
(١٢) جـ١ ص٥٢ ٠
(١٣) ارشاد الاريب جـ١ ص٣٢١ ، وانظر الهفوات النادرة ص١٢ ٠
(١٤) يتيمة الدهر جـ٢ ص٢٢١ ٠
(١٥) من ص٢٢٢ ٠
(١٦) ارشاد الاريب جـ١ ص٣٢٥ ٠
(١٧) دائرة المعارف الاسلامية مادة ابي اسحاق الصابي ٠
(١٨) ارشاد الاريب جـ١ ص٣٢٤ ٠
(١٩) ارشاد الاريب جـ١ ص٣٢٥ ٠
(٢٠) ص٤٥ ٠
(٢١) الامتاع والمؤانسة جـ١ ص٢٧ ٠
(٢٢) من ٠
(٢٣) يتيمة الدهر جـ٢ ص٢٢١ ٠
(٢٤) من جـ٢ ص٢٢٤ ٠
(٢٥) رسائل الصابي والشريف الرضي ص٧١ ٠
(٢٦) من ص٦٤ ٠
(٢٧) من ص١٠٦ ٠
(٢٨) من ص١٠٧ ٠
(٢٩) من ص٥٠ ٠
(٣٠) يتيمة الدهر جـ٢ ص٢٢٣ ٠
(٣١) الامتاع والمؤانسة جـ١ ص٦٧ ٠
(٣٢) ارشاد الاريب جـ١ ص٣٢٥ ٠
(٣٣) من جـ١ ص٣٣٦ ٠
(٣٤) دائرة المعارف الاسلامية مادة الصابي ٠
(٣٥) ارشاد الاريب جـ١ ص٢٣٦ ٠
(٣٦) النثر الفني في القرن الرابع جـ١ ص١٠٥ ٠
(٣٧) ارشاد الاريب جـ١ ص٣٢٤ ٠
(٣٨) من ٠
(٣٩) النثر الفني في القرن الرابع جـ١ ص٣٠١ ٠